المحاضرة الرابعة

الرواد والتجربة الشعرية - 2 -

تمهيد : لقد رأينا في المحاضرة السابقة كيف تحمّست نازك الملائكة لريادة الحركة الشعرية الجديدة. ورأينا أيضا الجهود العلمية التي كرّستها في سبيل فرض شخصيتها، التي أرست أسس الشعر العربي المعاصر، فكانت القطعة التي هشّمت أنف الفحل العرفي على حدّ تعبير عبد الله الغذامي.

غير أنّ هناك شاعرا آخر لا يقلّ جرأة عن نازك الملائكة حاول منافستها في هذه الريادة، ألا وهو بدر شاكر السيّاب*

السيّاب والتجربة الشعرية :

لقد أصدر السيّاب عام 1947 ديوان "أزهار ذابلة" وفيه قصيدة وحيدة بعنوان (هل كان حبّا)، ومن المحتمل أن يكون الشاعر قد كتب قصيدته قبل أشهر من طبع الديوان على الأقل، وهذا يعني أنّ تاريخ كتابة قصيدة السيّاب سابق لقصيدة نازك الملائكة.

لذلك نقول ما المقياس إذن؟ هل يمكن أن يكون تاريخ النشر أو تاريخ كتابة القصيدة؟ ومادام تاريخ الكتابة يمكن أن يدخل فيه عنصر الاحتمال فلا نستطيع أن نأخذ بالمقياس الأول.

وليبدو أن محاولتي الشاعرين - وإن كانت نازك أسبق بالنشر - كانتا متقاربتين في الفترة الزمنية، ولعلّ ذلك يرجع إلى أن كلاّ منهما كان يقرأ الشعر الإنجليزي خاصة للشاعر توماس إليوت وقصيدته الشهيرة أرض اليباب

لكنّ الملاحظ أن تجربة السيّاب الأولى، لم تنشق عن الشكل القديم، إلاّ

---

* بدر شاكر السيّاب شاعر عراقي (1926 - 1964). يعدّ ظاهرة فريدة في شعرنا المعاصر خاصة في عمليّة الخلق الشعري والتغيير المتجدّد من خلال كونه الشعري الذي أثّر في الثقافة العربية، أهم دواوينه أساطير وأنشودة المطر ومن أشهر قصائده: حفّار القبور، الموسى الحمياء، الأسلحة والأطفال.

انشغالا جزئيا طفيفا لا يوحي لأحد من الناس بالجدة.»①
ولم يواصل على منهجها إلا بعد عام 1949، في حين أن نازك كانت
قد أصدرت ديوانها الثاني عام 1949 تحت عنوان "شظايا ورماد"
مع تسجيل ملاحظة في هذا المقام مفادها: أن نازك كانت متوقفة
في الشعر الحر بشكل كبير، غير أنها تراجعت وتشاءمت من مستقبل هذا
الشعر، نجد السياب قد طور فيه وأثر في معاصريه والجيل التالي
له ومرد ذلك هو طبيعة المضامين السياسية والاجتماعية التي
طرقها السياب كما في قصيدته أنشودة المطر الذي يقول فيها:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء ... كالأقمار في نهر
يرجه المجداف وهنا ساعة السحر
كأن أضلاع يهذي قبل أن ينام:
بأن أمه - التي أفاق منذ عام
فلم يجدها ثم حين لج في السؤال
قالوا له: بعد غد تعود"
لابد أن تعود.

لقد استخدم الشاعر في هذه المقطوعة الرمز والأسطورة، كما لم يفعل
أي شاعر عربي سواه معللا ذلك بأن الكلمة العليا في عالمنا
المعاصر هي للمادة وليس للروح ولذلك لجأ إلى الخرافات والأساطير
التي مازالت تحتفظ بحرارتها، لأنها ليست جزءا من هذا العالم، عاد
إليها يستخدمها رموزا ويبني منها عوالم لأن عالم الأسطورة

① - إحسان عباس - بدر شاكر السياب ص 135

أغنى من عالم الواقع ، وقد جمع السياب الأساطير التي وظفها في شعره من بيئات وديانات مختلفة ومن التاريخ العربي والإغريقي والبابلي ، إلى أن وصل إلى بلدان الشرق الأقصى .

مثال ذلك يقول السياب في قصيدته "رحل النهار"

رحل النهار
ها إنه انطفأ ذبالة على أفق توهج دون نار
وجلست تنتظرين عودة مشرقا من الديار
والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود
هو لن يعود

أوما علمت بأنه أسرته آلهة الدجى
في "لعنة" سوداء في جزر من الدم والمحار
هو لن يعود
رحل النهار
فلسترحلي هو لن يعود

إن الطاقة الإبداعية عند السياب هي التي فتحت النص الشعري على عوالم مختلفة، عوالم لامتناهية من الدلالات الإيحائية، ولم يعد المعنى المعجمي هو المنطلق في تشكيل الدلالات ، التي أصبحت تصدر عن جماليات الذات المشاعرة في تفردها المطلق وفي تركيبها لنموذج لغوي جديد لم يسبقه إليه أحد .

وباختصار فقد حوّل السياب الصورة الشعرية ، إلى مضمار معرفي تتداخل فيه الثقافات القديمة بالحديثة والشعبية بالأكاديمية على نحو غريب يجعل من القصيدة تركيبة صعبة الفهم ، عسيرة على الذوق لا يستطيع القارئ الوصول إلى دلالتها ، إلا بعد جهد جهيد وقد لا يصل في النهاية .